انصاف المـــترجم

للدكتور محمد عوض محمد

أتى على المترجم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . وقد طال هذا الحين وامتد ، حتى كدنا نظن أن ليس لليله المدلهم من آخر . وإن من الناس لمن يظن أن المترجم ذو مكان تافه يسير ، وأن سيبقى مكانه مدى الدهر تافهاً يسيراً .

ولقد طالما أصغى المترجم الى هذه الاشارات والعبارات ، التي تنزله من عالم الأدب والكتابة أصغر المنـــازل . فيلقاها حيناً بالامتعاض ، وحيناً بالاستسلام ؛ وقد بات في حيرة من أمر نفسه ، فجعل يدعو نفسه أحياناً المترجم ، وأحياناً المعرب ، لعل في هذا ما يحسن من شأنه ومن حاله ؛ ثم يتواضع أحياناً فيكتفي بأن يقول : نقله عن الفرنسية . . . فلان ، ويوصي الطابعين بأن يكتبوا اسمه بحروف صغيرة ضئيلة . . . وليس هذا كله بمغن عنه شيئاً ، فليس الزهو بنافعه ، ولا التواضع بمانعه .

وبالرغم من أن حاله باعثة حقاً على الرثاء ، مثيرة حقاً للدموع والبكاء ، ؛ فانا قلما نجد له بين الورى منصفاً . كأنما أجمع الناس على ظلمه واضطهاده . وما كفاه السهر الطويل المضني ، والانكباب على البحث والتنقيب عن الألفاظ والعبارات ، واجهاده الفكر في فهم مالا يفهم . وانقاذ مالا يمكن انقاذه ؛ حتى اذا ما أتيح له بعد لأي وعناء ، أن يخرج مترجمه الى عالم الكتب ، جعل يتقدم به الى القراء ، في حيـاء وتردد ؛ كأنما ارتكب وزراً يريد أن يعتذر منه ؛ ويسبق الناقدين الى النقد فيقول لكل من يراه — بل ولكثير ممن لا يراه — إن الترجمة تشويه على كل حال ! . . وهو يريد بهذا أن يستل سخيمة الناقدين ، وأن ينتزع حمة العقرب أو على الأقل يهدئ من ثورتها . وشأنه في ذلك كشأن الطبيب الذي يطعمنا للجدري ، فيعطينا المرض في شكل صغير لكي يدرأ عنا الخطر الكبير . .

لكن هذه الحيلة لاتجديه نفعا ؛ وهذا الاعتراف ليس بمنجيه من العـذاب . فلا يلبث الناقدون أن يتناولوا المترجم بالتأنيب والتجريح ، وترجمته بالتنكيل والتعذيب ؛ ويعطرونه النقـد المرير أينما ذهب ، وحيثما نزل ؛ في مجالس الأدب وفي غير مجالس الأدب ؛ وفي الصحف السيارة وغير السيارة ؛ ومن النقد ما يلقى اليه مشافهة ، ومنه ما يلقى اليه كتابة .

هذا يتهمه بعـــدم الأمانة لأنه تصرف في اللفظ من أجل الحرص على المعنى : فالويل له كيف يتصرف في اللفظ وهو أثمن شيء في الوجود ! والآخر ينعته بالجمود وبالتمسك بالحرف وبالحرص على اللفظ ، حتى جاءت ترجمته في حاجة الى ترجمة : لا هي عربية فتفهم ، ولا أعجمية فتتفهم . ويقول الثالث : أجل وإن المترجم لذو شخصية ضعيفة ضئيلة ، حتى لقد غمرته شخصية المؤلف وطغت عليه ومحته محواً تاماً . فقارىء الترجمة لا يجـــد فيها سوى روح المؤلف ، أما المترجم فلا روح له ! ويقول رابعهم مداعباً : إن هذه الترجمة والأصل كالزنجية الشوهاء وخيالها في الزفت ! ويقول الخامس : ما كان أغنى قراء العربية عن ترجمة مثل هذا الكتاب ، فيالله من مجهود ضائع ! ويقول السادس وهو يتكلف الظرف : إن هذه الترجمة لكتاب (هملت) من الابداع بحيث يجب أن تترجم مرة أخرى الى الانكليزية ! ليرى شكسبير كيف يجب أن يكتب (هملت) !

ثم من بعد هذا كله فما هو في نظر الجميع سوى مترجم ! رجل أعوزته القدرة على الابتكار ، فانصرف الى النقل ! فهل يكون لمثل هذا في عالم الأدب أو العلم مكان ؟ وأين هو من زيد وعمرو وبكر الذين ألفوا وصنفوا مجلدات فتحت في العلم أبواباً وطرقاً وشوارع ؟ حتى إن منهم لمن يبيع لتلاميذه الملزمة الواحدة بعدة دراهم !

* * *

ينصت المترجم المسكين لكل هذا وهو مطرق الرأس مغمض الطرف ، وقد أخذ الندم يأكل قلبه وكبده ورئتيه . وهو على هذا يعلم أنه ليس شراً من أولئك المؤلفين ، وأنه لو شاء أن يسلك السبيل التي سار فيها زيد أو بكر لما كان من الصعب عليه أن يجمع الفصول من بعض الأسفار ؛ ثم يسيء وضعها وترتيبها ، ويعرضها على أنها من مؤلفاته القيمة ، ومن بنات أفكاره ودلائل

إنجازه . ولكنه آثر أن يسلك سبيلاً غير ذى عوج ، وأن يعمل فى وضح النهار . فى زمان ساد فيه الالتواء والظلماء .

لا شك أن المترجم المسكين مهيض الجناح ، مهضوم الحق ، وقد بلغ من هوان أمره على بعض الناشرين أنهم ربما نشروا الكتاب ، ولم يعنوا حتى بذكر اسم المترجم !

ومع ذلك فلقد يلقى المترجم من حين الى حين منصفاً يكون بمثابة جزيرة من الأمل وسط هذا البحر الفسيح من القنوط ! ومن أحسن ما يذكر فى إنصاف المترجم ما قاله الأستاذ طه حسين فى مقدمة الترجمة العربية لكتاب هرمن ودروتيه . وقد جاء فى كلامه العبارة الآتية :

« إن الذين يترجمون آيات الأدب والفن والفلسفة ينسون أنفسهم ، ويمحون شخصياتهم ، ويقنعون بمكان المترجم ، الذى ليس هو بالقارىء المستريح ، ولا المنتج النابغة ، لكنه صلة بين الرجلين : لاحظ له من راحة الأول ، ولاحظ له من مجد الثانى ، وإنما هو خادم مخلص أمين ؛ يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ، وحيث يشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة . . . هذه منزلة المترجم يراها الناس يسيرة ، وأراها عظيمة جليلة الخطر . وحسبك أنها هى التى تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب . فتزيل ما بينهم من الفروق وتدنى بعضهم الى بعض » .

هكذا أنصف الأستاذ طه حسين المترجم ؛ وردّ اليه شيئاً من حقه المضيع . ويحق للمترجمين أن يغتبطوا بأن قد صدر لصالحهم فى هذا الأسبوع حكم آخر من ناحية لم يكونوا يتوقعون منها كل هذا العطف . وألذ النعماء ما جاءك من حيث لا تحتسب . ذلك أن القضاء المصرى قد قضى فى هذا الأسبوع — ولا راد لما قضى — بحكم لعله أكبر غنم يستطيع المترجم أن يظفر به . وها نحن أولاء نثبت هذا الحكم ها هنا بنصه وفصه :

« ان ما يلاقيه المترجم من صعوبة وعناء النقل من لغة الى لغة ، واصلاح فى عباراتها يستلزم كداً وعلماً معاً ؛ حتى لقد يفضل المترجم أن يكون صاحب تأليف ، أو أن يصرف وقته فى التأليف بدلاً أن يصرفه فى الترجمة والنقل ، لأنه فى التأليف مطلق ، يزيد من المعانى ، ويضيف ما يريد من الألفاظ ، ويقدم ويؤخر ، ويحذف ويثبت على حسب ما يرى . أما فى الترجمة فنجده مقيداً بما ينقل من نظام وترتيب ، واثبات وتقييد . ولا بد له من أن يدرك المعنى إدراكاً واضحاً ، يلبسه زيه من الألفاظ والجمل فى اللغة التى ينقل اليها ، كما يكون أميناً فى نقله ، صادقاً فى ترجمته . ولا يكون أهلاً لذلك إلا إذا ملك ناصية اللغتين ، وعرف فيهما الشارد والوارد ، وأدرك دقائق كل منهما : من معان خفية ، وأسرار فى التراكيب . وأن تكون نفسه قد مرنت على هذه الصناعة ، ووقف على أسرارها ، واتخذ له طريقة واضحة فيها . وإن كثيراً ما تزل أقلام المترجم الأمين ، الذى يريد أن ينقل من قلب الشاعر كما يقولون ، فاهيك بما يلاقى من تعب وكد فى معرفة غرض الكاتب ، فيلتجئ الى معاجم اللغة ؛ يقلب صفحاتها ويرجع الى عبارات كبار الكتاب وأساليبهم ، لعله يصل الى معرفة مثل هذا التعبير ، أو ما يقرب منه ، أو يعثر على شرح له فى كتب الأدب . ولقد يقطع المترجم أياماً فى البحث عن كلمة واحدة !... وإن هناك فى الترجمة عقبات منشؤها خفاء المعنى ، أو غرابة اللفظ ، تظهر فى بلاغة الكاتب . وتمكنه من امتلاك نواصى الأساليب ، بعبارة يسهل إدراك معناها ، ولكن يصعب على المترجم نقلها ووضعها فى قالب آخر ... » (١)

ذلك هو الحكم القاطع الذى صدر فى إحدى القضايا منذ بضعة أيام ، وان صدوره هو الذى حملنا على كتابة هذا المقال ! ولعل مثل هذا الحكم هو أعظم حادث فى عالم الأدب — على الأقل فى عالمنا هذا — فلينتبط المترجمون ، فان لهم من هذا الحكم سيفاً بتاراً يقطعون به رأس الجحود والنكران . وليحذر الذين يضحون من مرتبة المترجم بعد اليوم — فليس حكم القضاء بالشىء الذى يجوز معه العبث أو المراوغة ؛ فليبادروا بالتوبة وبالتكفير عن سيئاتهم الأولى ، ويعترفوا صاغرين بما للمترجم من المنزلة العالية والمقام الرفيع .

وأنتم معشر المترجمين ، هلموا اليوم فشمروا عن ساعد الترجمة وأقبلوا عليها إقبال من يعرف مالها من جليل الخطر ، وما عليكم من رسالة تؤدونها فى أمانة وإخلاص جديرين بذلكم الحكم الباهر . .

محمد عوض محمد

(١) راجع الأهرام فى ٢٤ مايو سنة ١٩٢٤